الظلم والظالمون

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّهِ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ باللَّه من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه اللَّه فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد فإن أصدق الحديث كلام اللَّه تعالى، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

١

أحب الخلق إلى الله

ثم أما بعد.. روي عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الخلق كلهم عيال اللّه، فأحب الخلق إلى اللّه من أحسن إلى عياله».

قال العجلوني في كشف الخفاء [١٢٢٠]: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نُعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه مرفوعاً.

ورواه أبو نعيم وأبو يعلى والطبراني والبزار وابن أبي الدنيا وآخرون عن أنس رضي اللّه تعالى عنه مرفوعاً.

والطبراني عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه بلفظ: «.. فأحبهم إلى اللّه أنفعهم لعياله».

ورواه الديلمي عن أنس رضي اللّه تعالى عنه ورفعه بلفظ: «الخلق كلهم عيال اللّه، وتحت كنفه، فأحب الخلق إلى اللّه، من أحسن إلى عياله».

وفي رواية للعسكري عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنه قال: قيل يا رسول اللّه أي الناس أحب إلى اللّه؟ قال: أنفع الناس للناس.

وللطبراني عن زيد بن خالد مرفوعاً: «خير العمل ما نفع، وخير الهدى ما اتُبع، وخير الناس أنفعهم للناس».

وعزّاه في الدرر للبيهقي في الشعب، وأبي يعلى عن أنس بسند ضعيف.

ولابن عدي عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه بلفظ: «الخلق كلهم عيال اللّه وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

قال النووي في فتاواه: هو حديث ضعيف، لأن فيه يوسف بن عطية، ضعيف باتفاق الأئمة.

ورواه الحافظ عبد العظيم المنذري في أربعينه عن أنس رفعه بلفظ: «الخلق كلهم عيال اللّه فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله».

قال أبو عبد الله محمد السلمي في تخريجه: ومعنى «عيال الله»: فقراء الله فالخلق كلهم فقراء إلى الله. وهو الذي يعولهم. انتهى.

وله طرق بعضها يقوي بعضا.

قال العسكري: هذا الكلام على المجاز والتوسع، كأن الله لما كان المتضمن بأرزاق العباد، والكافل بهم كان الخلق كالعيال له. ونحوه حديث: «إن لله أهلين من الناس: أهل القرآن وهم أهل الله»(١) وما أحسن قول أبي العتاهية:

عيال الله أكرمهم عليه ... أبشهم المكارم في عياله

ولم نر مثنياً في ذي فعال ... عليه قط أفصح من فعاله

ولغيره:

الخلق كلهم عيال الله تحت ظلاله ... فأحبهم طرا إليه أبَرّهم لعياله

وللطيبي الصغير وأجاد:

وخير عباد الله أنفعهم لهم ... رواه من الأصحاب كل فقيه

وإن إله العرش جل جلاله ... يعين الفتى ما دام عون أخيه

وقال ابن حجر المكي في الفتاوى الحديثية: حديث «الخلق عيال الله، وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله» ورد من طرق كلها ضعيفة. ولفظ بعضها: «الخلق كلهم عيال الله، وتحت كنفه فأحب الخلق إلى الله من أحسن لعياله، وأبغض الخلق إلى الله من ضيق على عياله» انتهى.

---

(١) رواه ابن ماجه [٢١٥] وصححه الألباني.

٢

تكريم الله تعالى لبني آدم

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿كَرَّمْنَا﴾ تضعيف كرم، أي جعلنا لهم كرماً، أي: شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة، في امتداد القامة، وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر، مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، تخصيصهم بما خصهم به من المطاعم، والمشارب، والملابس. وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة وغاية كل حيوان يأكل لحماً نيئاً، أو طعاماً غير مركب.

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدواب والمراكب وَفي ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ في الفلك التي سخرناها لهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها، إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق.

وفي مختصر تفسير ابن كثير للصابوني: يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها، ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من زروع وثمار ولحوم وألبان،

من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة، من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا! أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبّح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان»[1] رواه الحافظ الطبراني ورواه عبد الرزاق عن زيد بن مسلم موقوفاً وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً.

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: [٢٦٥] رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المحيصي، وهو كذاب متروك، وفي سند الأوسط: طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً.

٣

نعمة الله تعالى على الإنسان

يرى المؤمن ـ بتوجيه كتاب الله تعالى له ـ آثار رحمة الله ونعمته في كل شيء حوله، أما نعمة الله عليه في شخصه هو فما أعظمها وما أغزرها!

فأولها: نعمة الخلق: ولولا مشيئته وفضله لبقي في ظلمة العدم ولم يكن شيئاً مذكوراً: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا • إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢].

وثانيها: نعمة الإنسانية: فقد شاء الله أن يخلقه بشراً سوياً ويستخلفه في الأرض ويفضله على كثير من خلقه؛ وذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويتبع ذلك حسن الصورة الحسية المعنوية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وثالثها: نعمة الإدراك والعلم: قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ • ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ • عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهذه الثلاث هي أدوات العلم ومداركه.

ورابعها: نعمة البيان المنطقي والخطي: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ • عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ • خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ • عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وخامسها: نعمة الرزق: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

وسادسها: ـ وهذا خاص بالمؤمن ـ نعمة الإيمان والهداية إلى صراط الله المستقيم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وسابعها: **نعمة الأخوة والمحبة**: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

٤

لَا يَظْلِمُ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ

روى البخاري [٢٣١٠] عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

قال الحافظ في الفتح: قوله: «المسلم أخو المسلم» هذه أخوة الإسلام؛ فإن كل اتفاق بين شيئين يطلق بينهما اسم الأخوة ويشترك في ذلك الحر والعبد والبالغ والمميز.

وقوله: «لا يظلمه» هو خبر بمعنى الأمر؛ فإن ظلم المسلم للمسلم حرام وقوله: «ولا يسلمه» أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون ذلك واجباً، وقد يكون مندوباً بحسب اختلاف الأحوال.

وزاد الطبراني من طريق أخرى عن سالم: «ولا يسلمه في مصيبة نزلت به».

قوله: «ومن ستر مسلماً» أي: رآه على قبيح فلم يظهره، أي للناس، وليس في هذا ما يقتضي ترك الإنكار عليه فيما بينه وبينه، ويحمل الأمر في جواز الشهادة عليه بذلك على ما إذا أنكر عليه ونصحه فلم ينته عن قبيح فعله ثم جاهر به، كما أنه مأمور بأن يستتر إذا وقع منه شيء. فلو توجه إلى الحاكم وأقرّ لم يمتنع ذلك، والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب الإنكار عليه وإلا رفعه إلى الحاكم وليس من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة، وفيه إشارة إلى ترك الغيبة لأن من أظهر مساوئ أخيه لم يستره.

---

(١) ورواه مسلم [٢٥٨٠/٥٨].

وقوله: «ستره الله يوم القيامة» في حديث أبي هريرة عند الترمذي «ستره الله في الدنيا والآخرة».

وفي الحديث حض على التعاون وحسن التعاشر والألفة وفيه أن المجازاة تقع من جنس الطاعات وأن من حلف أن فلاناً أخوه وأراد أخوة الإسلام لم يحنث.

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي: وفي حديث ابن عمر: «من ستر مسلماً» أي بدنه أو عيبه. بعدم الغيبة له والذب عن معائبه. وهذا بالنسبة إلى من ليس معروفاً بالفساد وإلا فيستحب أن ترفع قصته إلى الوالي، فإذا رأى معصية فينكرها بحسب القدرة وإن عجز يرفعها إلى الحاكم.

٥

التيسير على المسلم

روي عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي اللَّه تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مَنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّه عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّه فِي الدّنيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ يَسّر عَلَى مُعْسِرٍ يَسّرَ اللَّه عَلَيْهِ فِي الدّنيَا وَالآخِرَةِ، واللَّه فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ اللَّه لَهُ به طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا قَعَدَ قَوْمٌ فِي مَسْجِدٍ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّه وَيتدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ المَلَائِكَةُ، وَمَنْ أَبْطأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي: قوله: «من نفس» من التنفيس «عن أخيه كربة من كرب الدنيا» أي: أزالها وفرجها.

قال الطيبي: كأنه فتح مداخل الأنفاس، فهو مأخوذ من قولهم: أنت في نفس أي: سعة، كأن كربه سدّ عنه مداخل الأنفاس، فإذا فرج عنه؛ فتحت، والمراد من أخيه: أخوه في الإيمان.

وفي رواية مسلم: «من نفس عن مؤمن نفس اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة» لما كان الخلق كلهم عيال اللَّه وتنفيس الكرب إحسان فجزاه اللَّه جزاء وفاقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾؟ [الرحمن: ٦٠] «ومن ستر مسلماً» أي: في قبيح يفعله فلا يفضحه أو كساه ثوباً «ستره اللَّه» أي عيوبه أو عورته.

وقال النووي في شرح قوله ﷺ: «ومن ستر مسلماً ستره اللَّه يوم القيامة».

الستر المندوب إليه هنا المراد به: الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس هو معروفاً بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه بل يرفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة؛ لأن الستر على هذا

---

(١) رواه مسلم [٢٦٩٩/ ٣٨]. والترمذي [٢٩٤٥].

يطمعه في الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله. هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت.

أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها. فإن عجز لزم رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة.

«ومن يسر على معسر» أي: سهل على فقير، وهو يشمل المؤمن والكافر أي من كان له دين على فقير فسهل عليه بإمهال أو بترك بعضه أو كله «يسر الله عليه» بدل تيسيره على عبده مجازاة بجنسه.

«والله في عون العبد» الواو للاستئناف وهو تذييل للكلام السابق.

«ما كان العبد» أي: ما دام «في عون أخيه» أي: في قضاء حاجته.

وقال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير: «من ستر أخاه المسلم في الدنيا» في قبيح فعله وقوله: «فلم يفضحه» بأن اطلع منه على ما يشينه في دينه أو عرضه أو ماله أو أهله فلم يهتكه ولم يكشفه بالتحدث «ستره الله يوم القيامة» أي: لم يفضحه على رؤوس الخلائق بإظهار عيوبه وذنوبه بل يسهل حسابه ويترك عقابه. لأن الله حيي كريم. وستر العورة من الحياء والكرم.

ودُعي عثمان إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا فلم يدركهم فأعتق رقبة شكراً لله تعالى أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم.

٦

الظلم ظلمات

عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[١].

وعن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[٢].

وعن أبي ذر رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن اللّه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[٣].

قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

---

(١) رواه البخاري [٢٣١٥].

(٢) رواه [٢٥٧٨/٥٦].

(٣) رواه مسلم [٢٥٧٧/٥٥].

وفي رواية: «إني حرمت على نفسي الظلم، وعلى عبادي فلا تظالموا».

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قلنا: يا رسول الله نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تكفه عن الظلم فذاك نصرك إياه»(١).

وعن قيس قال: قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]».

وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم، أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تودع منهم»(٣).

عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة؟ فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال: يا رسول الله أو ليستا بواحدة؟ قال: «لا . . إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير»(٤).

عن ثابت أو عن أبي ثابت رضي الله تعالى عنه أن رجلاً دخل مسجد دمشق فقال: اللهم آنس وحشتي، وارحم غربتي وارزقني جليساً صالحاً. فسمعه أبو الدرداء فقال: لئن كنت صادقاً، لأنا أسعد بما قلت منك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه الترمذي [٢٢٥٥] وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه أبو داود [٤٣٣٨] وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد في المسند [٢/ ١٦٣] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، رجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أن أبا الزبير وهو محمد بن مسلم بن تدرس لم يسمع من عبد الله بن عمر فيما قاله أبو حاتم في المراسيل [ص: ١٥٤].

(٤) رواه أحمد في المسند [٤/ ٢٩٩] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يعني: الظالم يؤخذ منه في مقامه ذلك فذلك الهم والحزن ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال: ﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: الذين يدخلون الجنة بغير حساب(١).

وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع؛ «أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير، والديباج، والقسي، والإستبرق»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»(٣).

وعن زيد بن أسلم عن أبيه رضي الله تعالى عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، استعمل مولى له يدعى هنياً على الحمى، فقال: «يا هني اضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة، وإياي ونعم بن عوف، ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن رب الصريمة، ورب الغنيمة، إن تهلك ماشيتهما يأتني ببينة، فيقول: يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبا لك؟ فالماء والكلأ أيسر عليّ من الذهب والورق، وأيم الله إنهم ليرون أني قد ظلمتهم؛ إنها لبلادهم فقاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً»(٤).

وعن عبد الله بن سرجس رضي الله تعالى عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ١٩٤] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٢) رواه البخاري [١١٨٢].
(٣) رواه البخاري [١٤٢٥].
(٤) رواه البخاري [٢٨٩٤].

سافر يتعوذ من وعثاء السفر وكآبة المنقلب والحور بعد الكور ودعوة المظلوم وسوء المنظر في الأهل والمال»(١).

وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن؛ دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»(٢).

وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم؛ الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عزّ وجلّ: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»(٣).

وعن البراء أن رسول اللّه ﷺ مرّ بناس من الأنصار وهم جلوس في الطريق فقال: «إن كنتم لا بدّ فاعلين فردوا السلام، وأعينوا المظلوم، واهدوا السبيل»(٤).

وعن عبد اللّه بن سرجس رضي اللّه تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا سافر يقول: «اللّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللّهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، اللّهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا، ومن الحور بعد الكور، ودعوة المظلوم، ومن سوء المنظر في الأهل والمال»(٥).

وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال؛ قال رسول اللّه ﷺ: «يا ابن آدم اعمل كأنك ترى، وعُدّ نفسك مع الموتى، وإياك ودعوة المظلوم»(٦).

وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال؛ قال رسول اللّه ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»(٧).

وعن أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه قال؛ قال رسول اللّه ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافراً فإنه ليس دونها حجاب»(٨).

وعن أبي الشماخ الأزدي عن ابن عم له من أصحاب النبي ﷺ أنه أتى معاوية

---

(١) رواه البخاري [١٣٤٣].

(٢) رواه أبو داود [١٥٣٦] وحسنه الألباني.

(٣) رواه الترمذي [٢٥٢٦] وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي [٢٧٢٦] وقال الألباني: صحيح المتن.

(٥) رواه الترمذي [٣٤٣٩] وصححه الألباني.

(٦) رواه أحمد في المسند [٢/ ٣٤٣] وقال الأرناؤوط: حديث قابل للتحسين؛ وإسناده ضعيف.

(٧) رواه أحمد في المسند [٢/ ٣٦٧] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٨) رواه أحمد في المسند [٢/ ١٥٣] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

فدخل عليه وقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من ولي من أمر الناس، ثم أغلق بابه دون المسكين، أو المظلوم، أو ذي الحاجة، أغلق اللّه عزَّ وجلَّ دونه أبواب رحمته عند حاجته وفقره، أفقر ما يكون إليها»(١).

وعن البراء رضي اللّه تعالى عنه قال: مرّ رسول اللّه ﷺ بقوم جلوس في الطريق، قال: «إن كنتم لا بدّ فاعلين، فاهدوا السبيل، وردوا السلام، وأغيثوا المظلوم».

قال عفان: «وأعينوا»(٢).

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٤٨٠] وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٢) رواه أحمد في المسند [٤/ ٢٩١] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات وتقدم من رواية الترمذي [ص: ٢٦].

٧

أعظم الظلم

عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: ١٣].

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ. إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[2].

قال الحافظ في الفتح: قول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هكذا وقع الحديث في صحيح مسلم[3] ووقع في صحيح البخاري: لما نزلت الآية قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم نفسه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] فهاتان الروايتان إحداهما تبين الأخرى، فيكون: لما شق عليهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) رواه البخاري [٣٢] ومسلم [١٢٤/١٩٧].
(٢) رواه البخاري [٣١٨١].
(٣) رواه مسلم [١٢٤/١٩٧].
(٤) رواه البخاري [٣٢].

وقال النووي: أعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هناك المراد به هذا المقيد وهو الشرك، فقال لهم النبي ﷺ بعد ذلك: ليس الظلم على إطلاقه وعمومه كما ظننتم، إنما هو الشرك كما قال لقمان لابنه، فالصحابة رضي الله تعالى عنهم حملوا الظلم على عمومه، والمتبادر إلى الأفهام منه، وهو: وضع الشيء في غير موضعه، وهو مخالفة الشرع، فشق عليهم، إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم.

قال الخطابي: إنما شق عليهم لأن ظاهر الظلم الافتيات بحقوق الناس، وما ظلموا به أنفسهم من ارتكاب المعاصي، فظنوا أن المراد معناه الظاهر وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. ومن جعل العبادة لغير الله تعالى؛ فهو أظلم الظالمين. وفي هذا الحديث جمل من العلم منها: أن المعاصي لا تكون كفراً. والله أعلم.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة. والمعصية فيه أشدّ من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً.

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ»[(٢)].

قال الحافظ: قوله: «لا يظلمه» هو خبر بمعنى الأمر فإن ظلم المسلم للمسلم حرام. وقوله: «ولا يسلمه» أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون ذلك واجباً وقد يكون مندوباً بحسب اختلاف الأحوال. وزاد الطبراني من طريق أخرى عن سالم: «ولا يسلمه في مصيبة نزلت به».

---

(١) رواه البخاري [٢٣١٥] ومسلم [٢٥٧٩/ ٥٧].

(٢) رواه البخاري [٢٣١٠] ومسلم [٢٥٨٠/ ٥٨].

ولمسلم في حديث أبي هريرة: «ولا يحقره» وهو بالمهملة والقاف وفيه: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[١].

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً. أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره»[٢].

وفي رواية: «تأخذ فوق يديه»[٣].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٥٦٤/ ٣٢].

(٢) رواه البخاري [٦٥٥٢]، ومسلم [٢٥٨٤/ ٦٢] بنحوه. وتقدم من رواية الترمذي [ص: ٢١].

(٣) رواه البخاري [٢٣١٢].

٨

هــــذا

وهذا الكتاب قد حوى بين دفَّتيه بعض خواطر فضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي عن الظلم والظالمين.. قمنا بإعداد مادته، والتعليق عليه، وشرحه، وتخريج أحاديثه، وإضافة بعض ما يلزم من جنس مادته من تأليف علماء آخرين أُعدت بعناية، وخُرجت أحاديثها، وتم التعليق عليها؛ ليعم النفع به.

نسأل اللَّه تعالى أن ينفع به قارئه وكاتبه وناشره، ويجزي عنا فضيلة الشيخ الإمام خير الجزاء، وينور له في قبره، ويرفع في المهديين درجته، وأن يجعله مع النبيين والصديقين والشهداء، إنه سبحانه سميع قريب مجيب.

وصَلِّ اللَّهم وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحمد للَّه رب العالمين.

عبد الله حجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

قال فضيلة الإمام محمد متولي الشعراوي الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد أُذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء لهدى الأرض، ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق مراده من الخلق، وعلى آله وصحبه دعاة الحق وسادة الخلق وبعد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

فإياكم أن تسوّل لكم أنفسكم أن تظلموا بعدوانكم على محمد ﷺ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً، وسيتم الله نوره، فلستم بدعاً من سابق الخلق.

﴿الْقُرُونَ﴾ جمع قرن، والقرن من المقارنة، وكل جماعة اقترنوا في شيء نسميهم قرناً، وقد يكون القرن في الزمنية، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة، والبشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون في شيء يجمعهم، مهما طال بهم الأمد.

وقول الحق: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله تعالى كانوا سيؤمنون؟ لا، فللّه علم أزلي، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعرافنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أننا نجد الإنسان حين يريد بناء بيت. فالأمر يختلف حسب مقدرته؛ فالفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين، فيخطط حسب البناء حجرتين، وإذا كان الإنسان متوسط الحال فهو يتجه إلى مهندس يصمم له بناء على قدر سعته، وإن كان الإنسان ثرياً فهو يستدعي المهندس الذي يبني له بيتاً حسب إمكاناته ورغباته ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه، وتظهر فيه كل التفاصيل حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالَم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى، ويأتي واقع الكون على وفق

ما قدره الخالق سبحانه أولاً، حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر فاللّه سبحانه يعلمه.

وقد صح أن القلم جف حتى في الأمور الاختيارية، وسبحانه يعلم ما تجري به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم، أما في الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار، وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً، فصمم المسألة على وفق ما علم.

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يلزمك، لا.. فقد علم أنك ستختار، وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه ـ أزلاً ـ وسبق في علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه: نقل الحق من صاحبه إلى غيره. والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلم فيها بعضهم البعض، لكن أعلى درجات الظلم؛ الشرك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فحين يظلم أحد نفسه فيجعل مع اللّه إلهاً آخر؛ فتلك هي قمة الظلم؛ لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وهم قد ظلموا في قضية العقيدة الأولى، أو ظلموا في الحقوق بينهم وبين أنفسهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

والواحد منهم ظالم ومظلوم في آن واحد؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطري، وملكة النفع العاجل الذاتي. فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل، تخرج النفس اللوامة؛ لتعيد الأمر إلى صوابه، أما إن كانت نفساً تأمر بالسوء فهي تطلب تحقيق الشهوات فقط؛ لأنها نفس أمارة بالسوء، أما إن اطمأنت النفس إلى حكم اللّه تعالى، ورضيت به ونفذت ما قاله اللّه سبحانه فهي نفس مطمئنة. ومن يظلم نفسه فهو الذي يتبع شهوات نفسه، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ليستقبل بعد ذلك شقاء آجلاً؛ فيكون قد ظلم نفسه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذي يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه لا على وفق ما يقهر خلقه عليه، فلو كان علمه سبحانه على وفق ما يقهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية.

والمثال ـ وللّه المثل الأعلى ـ أنت في البيت وتريد أن تقوم مع زوجتك برحلة، فإن كان الأولاد صغاراً، فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن

طعامكم في الثلاجة؛ لحم وسمك وجبن وزيتون. وبعد أن تخرج أنت وزوجك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبنا وزيتوناً؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام. ولو لم يكن في الثلاجة إلا الجبن لما قلت ذلك؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري.

لكن ما دام في الأمر اختيار؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء. وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به، برغم أنك تركت لهم الاختيار. ومثال هذا في القرآن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١ ـ ٣].

وفي هذا حكم من اللّه تعالى بأن أبا لهب سيموت كافراً مثل غيره من الكفار. وقد آمن من الكفار الكثير. ألم يسلم عمر؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل؟ ألم يسلم عمرو بن العاص؟ ألم يسلم خالد بن الوليد؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر؟ لا.. لم يسلم، وعلم رسول اللّه ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه. وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبي لهب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الذي كان للأمم السابقة التي أهلكت في القرون الماضية نجزي والجزاء ممن يحدِّد كل شيء؛ لأن القضايا في الكون واحدة. فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهي الدنيا.

إن الله لا يظلم مثقال ذرة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

كلمة: «ظلام» صيغة مبالغة في الظلم، مثلما تقول: فلان «آكل» وفلان «أكَّال» أي: كثير الأكل، مبالغ في تناول الطعام، وتقول فلان: «ناجر» أي: أمسك قطعة الخشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً، ولكنك إذا قلت: «نجَّار» فهذه صيغة مبالغة في أن هذه صنعته، كذلك: «خائط» و«خيَّاط» وتقول: فلان «جازر» أي: يستطيع أن يذبح، فإذا قلت: «جزَّار» أي: أن عمله هو أن يذبح.

إذن.. «فعَّال» صيغة مبالغة في الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان: حالة إثبات.. وحالة نفي؛ فأنت حين تقول: فلان «أكَّال» ثبت له صفة المبالغة في الأكل ومن باب أولى صفة أنه يأكل، وما دمت قد أثبت له الصفة الأعلى فتكون الصفة الأدنى ثابتة بالقطع. فإذا قلت: إن فلاناً «خياط» أثبتَّ له أنه يعرف الخياطة، وإذا قلت: إنه «نجار» أثبت له أنه «ناجر».

أما من ناحية النفي فإذا قلت إن فلاناً ليس «أكَّالاً» فهذه تنفي المبالغة، ولكنها لا تنفي أنه يأكل، وإذا قلت: إن فلاناً ليس «نجاراً» نفيت عنه إتقانه للنجارة، ولكنك لا تنفي عنه أنه قد يكون «ناجراً» وإذا قلت: إن فلاناً ليس «علَّامة» فقد يكون «عالماً»؛ فأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى، وعندما تنفي الأعلى لا تنفي الأدنى. وعندما تقول: إن فلاناً ليس «ظلَّاماً». تكون قد نفيت الأعلى، ولكن لا يلزم نفي الأدنى، فقد يكون «ظالماً» فقط وليس «ظلَّاماً».

إذن.. فقولنا: ليس «ظلَّاماً» نفت المبالغة فقط، ولكنها لم تنف الظلم.

ومن عجب أن المستشرقين قالوا: إن آيات القرآن تناقض بعضها بعضاً، ففي آية مثلاً يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم مع نفي الأعلى نفي الأدنى، ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] فنفى الأدنى والأعلى، وهذا في رأيهم تضارب. نقول: هل

إذا نفي الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى؟ طبعاً لا.. إن نفي الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى، وإنما لا يلزم بوجوده.

إذن.. فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] نفت مبدأ الظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] نفت مبدأ المبالغة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. فإذا قيل: إن الله نفي الأعلى وهذا إثبات للأدنى! نقول: نفي الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى، وإنما لا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى. إذن.. فلا هو «بظلام» ولا هو «بظالم» على أننا لا بدّ أن نلتفت إلى الإعجاز القرآني في الأسلوب، فالمتكلم هو الله.. نقول: هل قال الحق سبحانه وتعالى: ليس بظلام للعبد؟ أم ليس بظلام للعبيد.. لقد قال الحق: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لا بدّ أن نتنبه هنا إلى صيغة المبالغة، لو أنك قلت: إن فلاناً أكال. بالغت في أنه يأكل، ولكن لم تذكر لنا الكيفية، قد يكون «أكالاً» كأن يأكل خمسة أرغفة في الوجبة الواحدة، وقد يكون «أكالاً» في أنه يتناول كمية معقولة من الطعام، ولكنه يأكل عشر مرات في اليوم، أي: أنه كل ساعة أو ساعتين يطلب الطعام ولكن وجبته عادية، فالمبالغة مرة تكون في قوة الحدث ـ وإن لم يتكرر ـ ومرة تكون في المبالغة في تكرار الحدث.. والإنسان حين يظلم ظلماً بيناً مبالغاً فيه يقال عنه: إنه «ظلاّم» لأنه بالغ في الظلم، فإذا لم يبالغ في الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاماً نظراً لتعدد المظلومين.

وما دام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، ولم يقل: «ليس بظلام للعبد» وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة، فقدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ، وقدرة محدود النفوذ أكبر من قدرة الشخص العادي، فإذا كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ـ حاشاه ـ ولو مثقال ذرة لقيل: «ظلام» ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة. إذن.. فهو ليس بظلام للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد، ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه وتعالى، لأن ﴿اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

❁ ❁ ❁

الرسولُ ﷺ مُنَزَّهٌ عن الظلم

كان الزبير بن العوام رضي اللّٰه تعالى عنه، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وابن عمة رسول اللّٰه ﷺ قد اختلف مع أحد الأنصار في مسقى أرض لهما في الحَرّة ـ وهي مكان بالقرب من المدينة أرضها ملساء فيها حجارة سوداء ـ فاختصموا إلى رسول اللّٰه ﷺ فقال رسول اللّٰه ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» ولم يكن من المعقول أن يظلم رسول اللّٰه ابن عمته حتى لا يقول أحد إنه حكم لابن عمته. إن رسول اللّٰه ﷺ منزّهٌ عن أن يحكم بالظلم ليشتهر بالعدل كما يفعل بعض الناس ليطلبوا الشهرة، ومثل هذا النوع من الناس إن اختلف ابن لهم مع واحد من الناس فإنه يحكم للغريب ولا يحكم لابنه، ونقول لمثل هذا النوع من الناس: لا تحكم بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل، فهناك شجاعة يجب أن تمتلكها، وهي شجاعة الحكم بالعدل؛ إن الشجاعة تقتضي أن تحكم بالحق ولو كان لنفسك، ولكن عندما حكم رسول اللّٰه ﷺ لابن عمته الزبير؛ لم يعجب ذلك الأنصاري، فقال لرسول اللّٰه ﷺ: أن كان ابن عمتك، العرب منهم من يقول الكلمة ويترك للباقة السامع أن يفهم الباقي، فتغير وجه رسول اللّٰه ﷺ وقال: «يا زبير اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» وكثير من الناس الذين يحبون التصيد للإسلام يقولون: لقد حكم رسول اللّٰه أولاً لابن عمته ليروي ثم عدل الحكم ليروي الأنصاري.

هؤلاء لم يفهموا أن أرض الزبير كانت في المكان العالي وأرض حاطب في المكان المنخفض، ونحن إذا نظرنا إلى مكان الخصب فنحن نجده في بطن الوادي وليس في السفح؛ لأن الماء رغم أنه يتكون في العالي إلا أنه يتسرب إلى المكان المنخفض، لذلك فعندما نروي الأرض المنخفضة أولاً؛ ففي هذا ظلم للأرض العالية[1] ولذلك فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير

---

(١) وذلك ما ذهب إليه الإمام البخاري من ترجمته للحديث [٥/ ٣١٢] حيث قال: باب شرب الأعلى قبل الأسفل.

والفضل من الزبير، أما الحكم الآخر فهو مبني على العدل[1].

---

(١) الحديث رواه البخاري [٢٣٥٩]، ومسلم [٢٣٥٧/١٢٩] وأبو داود [٣٣٦]، والترمذي [١٣٦٣] عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما.

قال النووي: قوله ﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك؟ فتلون وجه نبي الله ﷺ ثم قال: يا زبير اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» أما قوله: «أن كان ابن عمتك»؟ فهو بفتح الهمزة أي: فعلت هذا لكونه ابن عمتك، وقوله: «تلون وجهه» أي تغير من الغضب؛ لانتهاك حرمات النبوة، وقبح كلام هذا الإنسان، وأما «الجدر» فبفتح الجيم وكسرها، وبالدال المهملة وهو الجدار، وجمع الجدار جدر، ككتاب وكتب، وجمع الجدر جدور، كفلس وفلوس، ومعنى «يرجع إلى الجدر» أي يصير إليه، والمراد بالجدر: أصل الحائط، وقيل: أصول الشجر، والصحيح الأول، وقدره العلماء أن يرتفع الماء في الأرض كلها حتى يبتل كعب رجل الإنسان، فلصاحب الأرض الأولى التي تلي الماء أن يحبس الماء في الأرض إلى هذا الحد ثم يرسله إلى جاره الذي وراءه، وكان الزبير صاحب الأرض الأولى فأدل عليه رسول الله ﷺ وقال: «اسق ثم أرسل الماء إلى جارك» أي: اسق شيئاً يسيراً دون قدر حقك، ثم أرسله إلى جارك إدلالاً على الزبير، ولعلمه بأنه يرضى بذلك، ويؤثر الإحسان إلى جاره، فلما قال الجار ما قال: أمره أن يأخذ جميع حقه، وقد سبق شرح هذا الحديث واضحاً في بابه، قال العلماء: ولو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاري اليوم من إنسان من نسبته ﷺ إلى هوى كان كفراً، وجرت على قائله أحكام المرتدين، فيجب قتله بشرطه، قالوا: وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس، ويدفع بالتي هي أحسن، ويصبر على أذى المنافقين ومن في قلبه مرض، ويقول: «يَسِّروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفروا» ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وقد قال الله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

قال القاضي: وحكى الداودي أن هذا الرجل الذي خاصم الزبير كان منافقاً.

وقوله في الحديث: أنه أنصاري لا يخالف هذا؛ لأنه كان من قبيلتهم لا من الأنصار المسلمين.

وأما قوله في آخر الحديث: «فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت فيه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فهكذا قالت طائفة في سبب نزولها».

وقيل: نزلت في رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فحكم على أحدهما.

فقال: ارفعني إلى عمر بن الخطاب. =

= وقيل: في يهودي ومنافق اختصما إلى النبي ﷺ فلم يرض المنافق بحكمه، وطلب الحكم عند الكاهن.

قال ابن جرير: يجوز أنها نزلت في الجميع. والله تعالى أعلم.

قوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم» هذا الحديث سبق شرحه واضحاً في كتاب الحج، وهو من قواعد الإسلام.

ظلم النفس

ظلم النفس يكون بأن يحقق لها الإنسان شهوة عاجلة ليورثها شقاء دائماً؛ وبذلك يكون الإنسان في وضع غريب هو أنه لم يحقق لنفسه شهوة؛ لأنه أورث نفسه شقاءً دائماً بشهوة عاجلة. وظلمُ النفس أشقى أنواع الظلم، وهل يوجد عاقل يعصي اللّٰه بترك أوامره ويقبل على أمر منهيّ عنه؟

إن العاقل لا يفعل ذلك؛ لأنه يعرف أن ظاهر الأمر هو تحقيق شهوة، ولكن باطن الأمر هو غرق في الشقاء، فالأمر بالصلاة إن كسل عنه الإنسان ونام فهو في ظاهر الأمر حقق متعة النوم لنفسه، لكنه أورثها انعزالاً عن اللّٰه، والأمر بعدم شرب الخمر إن لم يفعله الإنسان وشرب فقد يظن أنه حقق لنفسه متعة، وحقيقة الأمر أنه ظلم نفسه؛ لأنه أورثها شقاءً عظيماً، والإنسان بظلمه لنفسه يكون غير أمين عليها.

والظلم يقتضي ظالماً ومظلوماً، فكيف يكون حال من ارتكب الظلم مع نفسه؟ مَن الظالم؟ ومن المظلوم؟

إن النفس تطلق على اجتماع الروح في المادة، واجتماع الروح في المادة هو الذي يعطي النفس صفة الاطمئنان أو صفة الأمّارة بالسوء أو صفة النفس اللوامة، فساعة تأتي الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية، والروح قبل أن تأتي تكون خَيِّرَة بطبيعتها، والمادة قبل أن تتصل بها الروح تكون خيرّة بطبيعتها، فالمادة مقهورة بإرادة قاهرها. أقول ذلك حتى لا يقول قائل: إن هناك حياة مادية وحياة روحية، وإن الحياة المادية شر والحياة الروحية خير، ذلك أن المادة على إطلاقها خيّرة طائعة مسخرة عابدة مسبحة، وكذلك الروح، وينشأ الفساد ساعة تلتقي الروح بالمادة، وعندما يلتقيان ويوجد هذا التفاعل يتم التخيير، فيقال للمكلف: هل أنت تطمئن إلى حكم اللّٰه، أم أنك ستتأرجح بين النفس اللوامة والاطمئنان، أم أنك ستغرق في المعصية وتكون نفسك أمارة بالسوء؟ هذا الاختلاف إنما يأتي عند التقاء الروح بالمادة.

وحين تلتقي الروح بالمادة فمن الذي يظلم من؟ إن الهوى في المخالفة هو الذين يظلم مجموع النفس، فالمخطئ في ظاهر الأمر يحقق شهوة لنفسه

بالمخالفة، ولكن واقع الأمر أنه يرهق نفسه؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] وهناك فارق بين أن يأتي الإنسان بفاحشة ليحقق لنفسه شهوة، وبين أن يأتي الإنسان بفاحشة ليحقق لغيره شهوة، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هكذا نعرف أن فعل الفاحشة شيء وظلم النفس شيء آخر. إن فعل الفاحشة قد يمتع النفس للحظة، أما الذي ظلم نفسه من أجل أن يحقق شهوةً لغيره، هذا لم يُمتِّعْ نفسه، ويكون قد ظلمَ نفسه، فهو لم يعط نفسه شهوة اللحظة في الدنيا، ولم يقم بحماية نفسه من عذاب الآخرة. وذلك مثل شاهد الزور الذي يشهد من أجل أَخْذِ حق إنسان آخر، ماذا أخذ هذا الشاهد؟ لا شيء إلا ظلم النفس، ولذلك يروى: «شركم من باع دينه بدنياه وشَرٌّ منه من باع دينه بدنيا غيره»(١).

هذا هو ظلم النفس الفادح، وهم أيضاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يُحسنون صنعاً(٢).

---

(١) لم أجده فيما تحت يدي من مراجع.

(٢) قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. عن مصعب رضي اللّه تعالى عنه قال: سألت أبي يعني: سعد بن أبي وقاص عن قول اللّه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي اللّه تعالى عنه يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية، ومعنى هذا عن عليّ رضي اللّه تعالى عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لأنها ما نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد اللّه على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۞ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ثم فسرها فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون.

إن الظلم كالجور أي: نوع من الاعتداء أو القسر أو القهر أو انتقاص القدر أو القيمة، ويقابل الظلم الإنصاف، كما يقابل الجور العدل. الظلم إذن انتقاص من حق، فما بالنا عندما ينتقص الإنسان من حق نفسه، أي يظلم نفسه فيكون مظلوماً من نفسه وظالماً لنفسه؟! وظلم النفس أبشع ألوان الظلم.. إن النفس التي كرمها الله وخلقها كانت تستحق من الإنسان أن يرعاها وأن يحقق مُرادَ الله منها وأن يمنع عنها إلحاح اشتهاء ما يغضب الله؛ وظلم النفس يقول فيه الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ • أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦] وهكذا نرى التفريق بين فعل الفاحشة التي تتلخص في المعصية التي قد يحقق بها الإنسان شهوة، أو نفعاً، أو أذيّة للمجتمع.

ونجد أن ظلم النفس لونٌ آخر من العمل السيئ. إن ظلم النفس يعني أن يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره. إن الذي يبيع دينه بدنيا غيره لا يحقق لنفسه أي نفع آجل أو عاجل.

والنوع الأول: يأتي فيهم القول: «شر الناس من باع دينه بدنياه» هؤلاء هم أصحاب الفواحش.

والنوع الثاني: يأتي فيهم القول: «وشر من هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم» لهؤلاء وأولئك شرع الله لهم وسيلة إلى النجاة بأن يذكروا الله، وأن يستغفروا، وألا يعودوا إلى مثل تلك الفواحش أو ظلم النفس حتى يغفر الله لهم ويدخلهم الجنة؛ ذلك أن الله لا يظلم أحداً ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] لماذا؟ لأن الناس تنقص قدرها من النافع الباقي، ويقعون أسرى الذي يزول.

وهنا نجد أن الإنسان قد يكون ظالماً ومظلوماً في نفس الوقت؛ لأن الناس يظلمون أنفسهم، والنفس البشرية لها ملكات النفع العاجل وملكات الشهوة. إلى غير ذلك؛ هذه الملكات تتصارع مع بعضها البعض، فإن فعلتَ سوءاً ثم لُمتَ نفسك عليه ففعلت خيراً فأنت صاحب نفس لوّامة، وإن كانت نفسُك طُبعت على السوء والشهوة تكون صاحب نفس أمارة بالسوء، وإذا اطمأنت نفسك إلى الله سبحانه وتعالى تكون صاحب نفس مطمئنة.

والنفس الأمارة بالسوء هي التي أكلت حقوق الناس وظلمتهم، ولكنها في نفس الوقت ظلمت نفسها وأعطتها متعة عاجلة وقادتها إلى شقاء دائم.

النهي عن الركون إلى الظالم

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ١١٣] الركون معناه الميل والسكون والمودة والرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأنك إن ركنت إلى الظالم أي مِلت نحوه وصادقته أدخلك معه، ولكن إن ابتعدت عنه ولم تركن إليه أحس بأنك تأوي إلى ركن شديد، فلا تركن إليه حتى يفهم أنك واثق بالله وقدرته على الظالم. حينئذٍ تضعف نفسه؛ وآفة الدنيا هي أن نستعين بالظالمين ونعينهم على ظلمهم؛ ذلك أن الذي يستعين بالظالم لا يتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يطيح بهذا الظالم وكل ما يملك من جبروت وبطش وقوة. والله سبحانه وتعالى يحذرنا من ذلك فيقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لماذا؟

لأننا لم نقف ضد الظالم، بل أعنّاه على ظلمه، ولو أن الظالم في أول مرة ظلم فيها وجد من يقاومه لكف عن ظلمه، ولكن الذي جعله يستشري أن الناس أعانوه على الظلم خوفاً منه ولم يجد من يقف أمامه، وأعلى مراتب التأييد للظالم أن يجد من يزيِّنُ للناس ظلمه، وهذا التزيين يساعد على نشر الظلم، فالركون إلى الظالم له صور متعددة، وإذا استعرضت أنواع الظلم في الكون كله تجد أنه ما من ظلم انتشر إلا لأن الناس أيدوا الظالم، وزينوا له عمله، ولو أنهم وقفوا ضده من أول لحظة ما انتشر ظلمه واستشرى.

والحق تعالى يقول: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود: ١١٣] أي: أنكم ليس لكم من ولي ولا ناصر إلا الله، فلا تركنوا إلى الذين ظلموا، ولا تستعينوا بهم، فالله وحده هو المعين لكم والناصر لكم، فاستقيموا على أمره ولا تتجاوزوه إلى غيره.

الظلم سبب للهلاك

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] وساعة تسمع ﴿كَمْ﴾ كأن تقول: كم أكرمت فلاناً، أو كم فعلت كذا، تكون المسألة قد خرجت عن مجرد حصرها بالعدد، فلو كان العدد بسيطاً فلا تستخدم كلمة «كم» ولكن إذا زاد العدد عن أن يحصر، فإننا نستخدم كلمة «كم»؛ لأنه كثير لا يعد، وهكذا إهلاك الله للقرى بظلمهم.

والقرية: هي المكان المعد إعداداً خاصاً لتكون فيه كل الاحتياجات اللازمة لمعيشة الناس، بحيث يجد الناس المسكن والطعام والشراب وكل ضروريات الحياة. ولكن هل الله يهلك القرى؟ أو يهلك من في القرى؟ مرة يهلك القرى فيدمرها ويجعل عاليها سافلها كما حدث لقوم نوح وقوم لوط، ومرة يهلك أهل القرى فتأخذهم الصيحة مثل قوم صالح، ولكنْ المراد في هذه الآية: هو أهل القرية فالقرية، كمبانٍ ومكان وآبار وعيون... إلخ. كلها مقهورة على الطاعة مسبحة لله سبحانه وتعالى لا تقدرُ على معصية، ولكن الذي يقدرُ على المعصية هم أهل القرية والله سبحانه وتعالى يستخدم في القرآن الكريم لفظ القرية كناية عن أهلها، فيقول في سورة يوسف: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وبالطبع لن يسأل أحد مباني القرية أو أرضها، ولكنه يسأل أهل القرية.

ولكننا لا بدّ أن نلتفت إلى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أيهما يأتي أولاً الإهلاك أم البأس؟ البأس طبعاً يأتي أولاً فيهلك الناس. إذن فكان على قدر علمنا أن تكون الآية: وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، لأن البأس هو الذي سيهلك الناس، نقول لك: لا، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نأخذ أحداث الكون بمظاهرها كما تحدث، بل بما هو في علم الله سبحانه، فإهلاك القرية لا يأتي ارتجالاً، لكنه يأتي بحكم أزلي من الله على أولئك الذين أفسدوا في الأرض، فالله قد حكم على القرية بالهلاك أولاً فجاء البأس ليتم أمر الله.

إذن.. فالحكم من الله بإهلاك القرية سابق في علم الله على نزول البأس عليها.

كيف ينتقم الله من الظالم؟

التاريخ أرانا ذلك فقد صنع الظالمون بعضهم في بعض الكثير، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم.

وقد بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار ـ وهو من أهل الخير ـ أنه قال: قرأت في بعض الآثار حديثاً قدسيًا يقول فيه الحق تبارك وتعالى: «أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي»[(1)].

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة، بدليل: أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو بجلاله ينزع المهابة من قلوب حراسه، وبدلاً من أن يدافع عنه بالبندقية، يصوب البندقية إليه.

فإياكم أن تظنوا أن ملكاً يأخذ الملك قهراً عن الله، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا؛ يسلط الحق عليهم من يظلمهم، ولذلك يقال: «الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به، وينتقم منه» قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

فكأن ما سُلِّطَ على الناس من شرٍّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم، ولذلك كان أحد الصالحين يقول: «أنا أعرف منزلتي من ربي من خُلُق دابتي؛ إن جمحت بي أقول: ماذا صَنَعْتُ حتى جمحت بي الدابة؟!» وكأن المسألة محسوبة. وهذه معاملة للأخيار، عندما يرتكب ذنباً؛ فإنه يؤاخذ به على الفور، حتى تصير صفحته نظيفة دائماً.

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد حديث رقم [٩٢٧٢] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول: أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم» وقال: رواه الطبراني في الأوسط. وفيه وهب بن راشد. وهو متروك.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفّر اللّه بها عنه، حتى الشوكة يُشاكها»(١).

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات، يوفيه الحق جزاءه من مرض في جسمه أو خسارة في ماله، وكذلك المسيء الذي لا يريد له اللّه النكال في الآخرة. يقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ اللّه تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»(٢).

(١) رواه البخاري [٥٣١٧]، ومسلم [٢٥٧٢/ ٤٩] عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها.
(٢) رواه البخاري [٥٦٤٧]، ومسلم [٢٥٧١/ ٤٥] عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه.

حال الكافر والظالم يوم القيامة

قد يخطر ببال الكافرين أنهم يستطيعون أن يفتدوا أنفسهم من العذاب في يوم القيامة بأي شيء، يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، أي: أن الكافرين عندما يرون العذاب لو أن لهم ما في الأرض بما فيها من نفائس وكنوز؛ لقدموها فداءً لأنفسهم من هول ما يرون، ولكن هيهات، لا يُقبل منهم يومئذٍ صرف ولا عدل.

والظلم: أخذ حق الغير، ومعنى حق الغير: أي ما كسبه بطريق مشروع، فالظالم يأتي إلى ما كسبه غيره بعرقه ويأخذه منه ظلماً وعدواناً، وهذا يوقف حركة الحياة؛ لأنه ما دمت سأعمل أنا ويأخذ غيري ناتج عملي فإنني لن أعمل.

والظالم حين يظلم لا يأخذ حق غيره فقط، بل يُغري غيره من الأقوياء على أخذ حقوق الضعفاء وظلمهم، فينتشر الظلم، وإذا انتشر الظلم في مجتمع تأتي معه البطالة وتتعطل حركة الحياة كلها.

إذن.. الظالم يأخذ أكثر من حقه، ويفتري على غيره، ويظلمه ويسلبه حقه، ولكنه حتى لو أخذ الدنيا كلها ثم جاء يوم القيامة وأراد أن يفتدي نفسه من العذاب بكل ما أخذ: فلن يُتقبل منه.

لماذا؟ لأنه طغى، وظلم، وافترى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١] وهذه ظاهرة موجودة في الدنيا قبل أن نصل إلى الآخرة.. فهب أن إنساناً ارتشى واختلس وسرق، ثم بعد ذلك سقط في يد القانون فقال لهم: خذوا ما عندي واتركوني. تماماً كالذي يحاول تهريب مبالغ كبيرة من النقد الأجنبي ثم يقول: خذوا هذه المبالغ واتركوني.

إذن.. فالإنسان في ساعة الخطر يرتكب هذه الآثام والشرور، ثم يمسك به للقصاص؛ فيحاول أن يفتدي نفسه بكل ما يملك، لكن هذا لا يقبل في الآخرة، إلا أننا لا بدّ أن نتوقف عند آيتين من سورة البقرة، وأولهما: قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

والآية الثانية قوله جل جلاله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] الذين في قلوبهم مرض يأخذون من مثل هذه الآيات الكريمة مدخلاً للتشكيك في القرآن الكريم، يقولون: إن الأسلوب واحد والمعنى واحد، ولكن مرة قُدمت ﴿عَدْلٌ﴾ على ﴿شَفَاعَةٌ﴾ ومرة قدمت ﴿شَفَاعَةٌ﴾ على ﴿عَدْلٌ﴾ ومرة جاءت ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ ومرة جاءت ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ ومرة جاءت ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ ومرة جاءت: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ نقول: لو عرف هؤلاء بلاغة العرب لفهموا أن الآية الأولى بليغة، والآية الثانية بليغة.

الآية الأولى تقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ فكم نفساً عندنا؟ نفسان: النفس الأولى هي التي تشفع، والنفس الثانية هي المشفوع لها.

في الآية الأولى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا يعود على النفس الشافعة أول ما يفتدي به يقول: خذ هذا وأتركني، فإذا لم يقبل منه بحث عن شفيع يشفع له فتكون الشفاعة مرفوضة؛ ولذلك قال الحق سبحانه في الآية الأولى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

في الآية الثانية تبدأ بالشفاعة، حيث يأتي من يشفع عند الله للظالم فلا تقبل شفاعته، فعندما لا تقبل الشفاعة يعرض أن يتحمل الغرم عن صاحبه، فيرفض هذا أيضاً ويقال: لا يؤخذ منك عدل، ولذلك قال تبارك وتعالى في الآية الثانية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

أي: في الآية الأولى لا يقبل منها العدل ولا تنفعها الشفاعة.

وفي الآية الثانية: لا تقبل الشفاعة ولا يؤخذ العدل، وهكذا نرى أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤] معناه: أنها حاولت أن تدفع ما في الأرض بافتراض أنها ملكته، فلا يقبل الفداء، ولو شفع بها أحد لا تقبل شفاعته.

ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤] وأسروا يعني: أخفوا، والندامة: هي الحسرة. وكونهم أَسَرُّوها أي لم تظهر عليهم، وإنما تقطع قلوبهم؛ لأنه إذا كان العذاب عظيماً تتجمد الدماء في عروق المعذب فلا يستطيع أن يصرخ، فهول الموقف يخرس لسانه يقول له: تكلم فلا يستطيع النطق. والصراخ نوع من التنفيس البدني وعدم القدرة على الصراخ؛ زيادة في العذاب.

❁ ❁ ❁

عقاب الظالم في الدنيا قبل الآخرة

إن العذاب لو أُجل كلُه للآخرة لانتشر الظلم بين الناس، واستشرى في الكون كله، فالإنسان الذي لا يؤمن بالآخرة؛ سينطلق ليعربد في الكون كما يشاء؛ لذلك كان لا بدّ أن يكون له جزاء في الدنيا يَلْفِتُ الناسَ إلى قيومية اللّه سبحانه وتعالى على كونه، وأن يكون عذاب الظالم في الدنيا عظة وعبرة لغيره، ثم يُردُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً شديداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] أي: أقرب من عذاب الآخرة وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن عذاب الدنيا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] أي: سنحتال عليهم كما يستدرج المحقق المتهم، يأتي بسؤال من هنا وسؤال من هنا حتى تتناقض أقواله ويعترف.. والاستدراج من الدرج وهو السلم، والسلم وسيلة الانتقال من أسفل؛ لأنه لا يمكن للإنسان بخطوة واحدة أن يصعد من الدور الأول إلى الدور الخامس مثلاً، ولا أن يهبط من الدور الخامس إلى الدور الأول.

إذن.. فلا بدّ له من مستويات متعددة حسب قدرة حركته العادية، بأن تكون الدرجة من العلو بمقدار ما يستطيع أن يرفع قدمه، ومن الاتساع بحيث تقف القدم عليها ثابتة، أي أنها تتم بحساب دقيق لقدرة الجسم على الحركة دون إرهاق.. إذن فالاستدراج إمّا لأعلى وإما لأسفل، وهذا بالنسبة للآخرة.. إن المؤمنين خُصُّوا بالدرجات العليا من الجنة، والكافرين خُصوا بالدرَكات السفلى من النار، وليست درجات الدنيا كالآخرة بل هناك فارق كبير.

ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ بالنسبة للدنيا: هو أننا سنأخذهم درجة درجة فيأتي لهم العذاب الأصغر، ثم يرفع عنهم فيستمروا في عصيانهم؛ فيأتيهم عذاب آخر، ثم يرفع عنهم؛ فيستمرون في طغيانهم. وهكذا يظلون ينزلون حتى يصلوا إلى عذاب النار في الآخرة. وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: أصروا على الكفر والعصيان ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي أعطيناهم بركة في الصحة والمال والولد وكل نعم الدنيا.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] لماذا؟ لأن الله حين يريد أن يعاقب إنساناً ظالماً يأخذه أخذة لينة علّه يرتدع فإذا أصر على طغيانه فإنه يعطيه حتى يرتفع. ثم بعد ذلك يأخذه أخذة قوية فيهبط من أعلى إلى لا شيء. تماماً كما يمسك إنسان بآخر في مشاجرة ويرفعه إلى أعلى ليلقيه على الأرض. لماذا رفعه إلى أعلى؟ لتكون السقطة قوية؛ فلو أنه دفعه إلى الأرض وهو واقف لكانت السقطة أضعف.

وإذا أراد بشر أن يستدرج بشراً فالبشر الثاني له ذكاء يستطيع أن يكشف به الهاوية التي يساق إليها، ولكن إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يستدرج فهل يملك إنسانٌ ذكاءً مع الله؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] أي: لا يمكن لإنسان أن يكشف استدراج الله له ويبطله لسبب بسيط هو أن الله يعلم والإنسان لا يعلم، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٥] والإملاء: هو الإمهال، أو التأخير أي أن الله سبحانه وتعالى لا يأخذ الظالم مرة واحدة، بل يأخذه درجة درجة حتى يحس الناس بشرور هذا الطاغية ويعرفوا حين يأخذه الله قيمة الخير وقيمة الإيمان وقيمة منهج الله في حياة الإنسان، فلو أن كل ظالم أُخذ في اللحظة التي ظَلَم فيها ما أحس الناس بشرور الظالم، وما أحسوا الله في الحماية لهم من هذا الظالم وغيره.

إذن.. فهذا الإمهال يوجد يقيناً في نفوس المؤمنين بضرورة منهج الإيمان، وكلما زاد الشر في مجتمع؛ هاج الخير في نفوس الناس، واتجهوا إلى منهج الله لينقذهم مما هم فيه.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ [القلم: ٤٥] أي: سأمهلهم، ولكني لن أهملهم، فهنا إمهال فقط، ثم بعد ذلك أخذٌ شديدٌ، وقال: ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾.

والكيد هو المكر، وهو تدبير خفي ضد الممكور به، ويكون التدبير خفياً حتى لا يستعد الخصم بملكات الدفاع عن النفس ليدفع الشر عنه، وإذا كان البشر يمكرون وقد يكشف خصومهم مكرهم وقد لا يكشفونه.. فما بالك إذا كان المكر يأتي من الله، هل يستطيع أحد كشفه أو دفعه؟ بالطبع هذا مستحيل؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ والمتن هو الظهر. وعظم العمود الفقري

لا بدّ أن يكون متيناً حتى يستطيع أن يحمل الجسم ويكون حوله من اللحم ما يحميه ويقويه، ومعنى قول الحق: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي مثل العمود الذي يحمل العلم وهو أقوى شيء فيه، و«المتن» في الفقه: كلام موجز يعطينا الأحكام، ولا بدّ أن يأتي لهذا الكلام شرح وحاشية، ولكنها كلها قائمة على «المتن» أي: الشيء الصلب القوي.

العدل.. حتى مع الكفار والظالمين

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤] كيف يُقضى بينهم وكلهم كفرةٌ وظالمون؟ المفترض أن يقضى بين المؤمنين وبين الكفار والظالمين؛ لأن القضية قائمة بينهم، ولكن الكلام عن المستحقين للعذاب فكيف يقضى بينهم؟ انظر إلى عدل اللَّه سبحانه وتعالى.. لا تظن أن الكافر باللَّه لا يعاقب إذا ظلم كافراً مثله.. هب أن كافراً ظلم كافراً، هل يترك اللَّه سبحانه وتعالى هذه المسألة ولا يقتص من الظالم؟ نقول: لا.. لأن اللَّه سبحانه وتعالى خلقنا جميعاً، ومقتضى الربوبية أنه يعاقب كل ظالم، ويأخذ حق كل مظلوم، ولو كانا كافرين به سبحانه وتعالى.

اللَّه تعالى يقول: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ تعني: أن هناك شيئاً يتطلب القضاء، والقضاء معناه: عدم التحيز، والفصل بين خصمين، والقضاء يترتب عليه حكم، ولأن اللَّه سبحانه وتعالى رب الجميع وخالق الجميع فكلهم في عطاء الربوبية سواء، فالشمس تُشرق على المؤمن والكافر، والماء ينزل للمؤمن والكافر، والهواء يتنفسه المؤمن والكافر؛ لأن هذا عطاء ربوبية، كل الناس فيه سواء، فإذا ظلم إنسان إنساناً آخر سواء كان الظالم والمظلوم مؤمنين أو كافرين، فلا بدّ أن يفصل اللَّه سبحانه وتعالى في هذا الظلم بالعدل. ولا يظلم ربنا أحداً، وهو الذي أمرنا بأن نتَخلق بأخلاقه ومنها العدل، فقال سبحانه في كتابه الخالد: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] [المائدة: ٨].

(١) أي لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا، فتعتدوا عليهم، فمن له حق يجب أن يأخذه، والعدالة حين تُطلب مع الخصم هي تقريع لذلك الخصم؛ لأنه خالف الإيمان، ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه: إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق، ولا بدّ أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً، وأن دينه الذي أمره بذلك هو نعم الدين.

جزاء المسرف في الظلم

قال اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧] وكذلك أي: بمثل هذا الجزاء نجزي من أسرف، والإسراف هنا هو تجاوز الحد في الأمر الذي يُعلم له حد معقول. فالواحد منا يأكل من أجل استبقاء حياته، فإذا زاد في الأكل فقد أسرف؛ فالإسراف هو تجاوز الحد المطلوب في العملية. فمثلاً: دَخْلُ الإنسان لو صَرفه كله ولم يدخر منه شيئاً؛ لا يمكن أن ترتقي حياته أو تتحسن معيشته، فلا يستطيع في يوم من الأيام أن يشتري سيارة يتنقل بها، أو يبني بيتاً له ولأولاده؛ لأنه يصرف كل دخله ولا يدخر شيئاً.

ولكن الإسلام علمنا الاعتدال في الإنفاق بأن نصرف جزءاً من دخلنا وندخر جزءاً، فاللّه تعالى يريد من الإنسان في اقتصادياته شيئين: الإنفاق وعدم الإسراف؛ لأنه لو لم ينفق لتعطلت مصالح الدنيا وتوقفت المصانع وتعطل العمال وتعثرت أسباب الحصول على الرزق، لكن إذا أنفق كل إنسان واشترى ما يلزمه ستدور عجلة الحياة وتستمر، ولكن لا يشتري بكل ما يملك، بل عليه أن يدخر جزءاً لوقت الحاجة حتى يتمكن من ترقية حياته والارتفاع بمستوى معيشته، ويوفر لنفسه ولأسرته الحياة الكريمة.

قال اللّه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] لأنه إن قَتَّرَ يعطل حركة الحياة، وإن أسرف يعيش مُتَحَسِّراً متعباً ولا يستطيع أن يُرَقِّي حياته، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] واللّه سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان خلق له مقومات حياته من طعام وشراب وهواء، وحدد له الطعام الحلال الذي يأكله والحرام الذي يبتعد عنه، فمن أعظم الإسراف أن تنقل ما حرمه اللّه إلى ما أحله اللّه، فالذي يفعل ذلك يكون متجاوزاً للحد. إذن.. فالإسراف هو تجاوز الحد.

ومن ثَمَّ فلا تضيق على نفسك بأن تحرِّم عليها ما أحله اللّه، ولا تسرف على نفسك بأن تتجاوز الحد وتحلَّ ما حرمَ اللّه وكلُّ هذا في صالح دنياك وآخرتك.

الحق سبحانه حينما خلق الإنسان أوجد له مقومات حياته، كما أنه ضمن له بقاء نوعه حتى يستمر الجنس البشري إلى أن تقوم الساعة؛ فشرع له الزواج الذي به يستمتع ويحفظ النسل، وجعل له ضوابط وقيوداً، فلا تسرف في هذه الناحية ولا تتعد على الحرمات التي حرمها الله، فالذي أسرف في حياته هو الذين نقل شيئاً من منطقة المحرّم إلى منطقة المحلل، أو نقل شيئاً من المحلل إلى منطقة المحرم.

والله تعالى من رحمته بعبده ولطفه به دعاه إلى عدم اليأس والقنوط إذا ما أسرف على نفسه واتبع شهواته وما زين له الشيطان من أعمال تخالف شرع الله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فالله تعالى يحببهم في التوبة والرجوع إليه؛ لأنه سبحانه سيقبل توبتهم ما داموا من المؤمنين به وبرسوله ﷺ مهما كان منهم من المعاصي البعيدة عن الشرك، فليسارع كل مسرف على نفسه، وكل متجاوز لشرع ربه، وكل معتدٍ على حق من حقوقه سبحانه، أو حقوق خلقه بالإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه عسى الله أن يتوب عليهم، ويغفر لهم ما قد سلف.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧] يشير إلى أن الإسراف يأتي في المرتبة الثانية بعد عدم الإيمان؛ لأنك بالإسراف تنقل الحرام إلى الحلال، وتنقل الحلال إلى الحرام ومعنى ذلك أنك تعطل آيات الأحكام.

❁ ❁ ❁

الإسراف.. يبددِّ مقوماتِ الحياة

يقول الحق تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] ما الإسراف في الأمر؟ إن كل معصية هي زيادة عن مقومات حياة الإنسان، إن الحق سبحانه قد شرع لنا الزواج لتكوين أسرة والإنجاب لعمارة الكون والاستمتاع بالإفضاء إلى ما أحله اللّه سبحانه لنا وفق شروط وقواعد محددة، لكن عندما نأخذ أكثر من العدد المحدد مثلاً، أو نتخذ الخلائل ونترك الحلائل، أو نصعِّب على راغبي الزواج زواجهم، أو نختار على غير هدي من الشرع الحنيف؛ فإن ذلك إسراف في الأمر.

واللّه سبحانه قد أعطانا من المال ما قسمه لنا، فإن طمعنا في مال الغير وأخذنا منه بغير حق، فهذا من شأنه إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، وتقطيع أواصر القربى وصلة الرحم، وهو تجاوز وإسراف في الأمر.

واللّه سبحانه وتعالى حدد لنا مصارف المال، وكذلك موارده، فمن تجاوز ما حدده اللّه وشرعه في طريقة إدارة أمواله، كأن يكون من المتعاملين بالربا مثلاً؛ فهذا من أعظم التجاوز في الأمر.

إن الإسراف في الأمر: هو أن يأخذ الإنسان حاجة أو شيئاً ليس من حقه، والذي ليس من حقك ولم يقسمه اللّه لك؛ ليس من ضروريات حياتك، وتستطيع أن تعيش بدونه.

❁ ❁ ❁

الإسراف.. فساد في الاختيار

إن الذين يسرفون على أنفسهم في المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية، ولذلك كل الجرائم إنما تتم في غفلة صاحبها عن الجزاء، إن المجرم إنما يرتكب جريمته وهو مقدِّرٌ السلامة لنفسه.. فالسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة، لكن لو وضع في ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً، إن الحق سبحانه وتعالى يقول: إياك يا من تريد أن تنحرف بمنهج الاختيار الذي أعطيته لك أن تنحرف عن منهجي بألا تقدِّرَ الجزاء على هذه المخالفة. وخذها قضية واضحة واسأل نفسك كم ستعطيك المعصية من نفع، وكم ستعطيك من شقاء؟ وضع الإثنين معاً في كفتي ميزان، وستعرف أن الذي سيعطيك الخير الأبقى هو الذي يجب أن تفعله، وعليك أن تبتعد عما لا يعطيك الخير الأبقى. واعلم أنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧] ويوم القيامة هو اليوم الذي قال فيه الحق: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ولماذا يوم القيامة؟ لأنه يوم الجزاء الذي يجزي اللّٰه تعالى فيه من أحسن، ويعاقب فيه من أساء.

ولنضرب هذا المثل لا للتشبيه ولكن للتقريب ـ وللّٰه المثل الأعلى ـ إن الوالد يعطي ابنه جنيهاً ويقول له: اشترِ ما تريد ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئاً مفيداً سأكافئك، وإن اشتريت أي شيء مفسدٍ كأوراق اللعب أو غيرها فَسَأُعَاقِبُكَ. إن الوالد ساعة أعطى ابنه القوة الشرائية وقال له: انزل اشتر ما تريد.. هل الابن ساعة أن اشترى أوراق اللعب هل هذا الشراء تم غصباً عن أبيه؟ لا؛ لأن الأب هو الذي أعطاه الاختيار، ولكن الابن فعل فعلاً غير محبب لأبيه، فما بالنا بالعبد عندما يحيد عن طريق الهداية الذي أمره اللّٰه تعالى به؟ إن العبد حين يسير على طريق المنهج إنما يفعل ما هو محبوب للّٰه وحينما يخرج بالمعصية عن المنهج إنما يفعل ما هو غير محبوب للّٰه.. ولو أراد اللّٰه الناس جميعاً على الهداية لجعلهم كالملائكة، ولما جرُؤ أحدٌ من العباد أن يخرج عن طاعة اللّٰه.. إن العاصي عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن اللّٰه سبحانه خلق له الاختيار، ولذلك فعندما يقول واحد: إن كل فعل من اللّٰه. هذا قول صادق، فإذا ما سأل سائل: ولماذا نُعَذَّبُ؟

تكون الإجابة: لأن الإنسان لم يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له، ولكنه اختار المخالفة لأمر الله، فالسكين مثلاً موجودة للذبح فلو ذبحنا بها دجاجة لما كان في ذلك ما يستحق العقاب، ولكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا في المحظور، فالذي جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له: أنت أتيت بأداة جريمة؟ لا.. لقد جاء بآلة يمكن استخدامها لصنع شيء مفيد، ويمكن استخدامها كأداة جريمة.

إذن.. فالذي يقول: إن كل فعل عن الله هو صادق لأنه حتى المختار لم يفعل باختياره إلا لأن الله تعالى خلقه مختاراً، لكن هل الحق سبحانه وتعالى ألزمه بأن يفعل المعصية؟ لا.. إن الحق سبحانه قد وضع المنهج ليرشد كل إنسان إلى الطريق الصواب، فإذا ما اختار الإنسان شيئاً بالمخالفة للمنهج؛ فهذا اختياره، وهو مسؤول عنه، ومحاسب عليه.

الإسراف.. ظلم من الإنسان لنفسه

الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول المحرمات كالخمر مثلاً؛ يأتي عليه زمان فيمنع نفسه عن أشياء هي بالطبع حلال له، فيقول له الطبيب: لقد تليف كَبِدك من شرب الخمر وصار من الممنوع عليك أن تأكل أصنافاً كثيرة من الطعام والشراب.

إذن.. فهذا الإسراف ظلمٌ من الإنسان لنفسه؛ نتج عنه منع أشياء عليه. هي حلال له، ناهيك بعقوبة الآخرة.

إن مثل هذا الإنسان قد وقع فيما حرم الله، فعاقبه الله بمنعه من أشياء هي حلال له.

ومثال آخر: الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً، ويأكله فوق ما تدعو إليه الحاجة فأضر بصحته، وهي نعمة من الله تعالى له، ولم يحافظ عليها بالاعتدال، فيقول له الطبيب مثلاً: لقد أخذت أكثر من حقك، ولذلك فأنت عطلت في جسدك القدرة على حُسن استخدام السكر، وصرت مريضاً، فاحذر أن تتناول السكريات مرة أخرى، ويظل المريض بالسكر يشتهي الحلوى، ويملك القدرة على شرائها ولكنها ممنوعة عنه، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له: بظلم منك لنفسك حرمت على نفسك ما أحللته لك.

إذن.. فالتحريم قد يكون بالتشريع إذا كانت العقوبة من المشرِّع، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة، هذا إن كان في الأمر إسرافٌ من النفس. ولنقرأ دائماً هذه الآية: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وكذلك الذي يأخذ مالاً بالربا، إنه يأخذ المال بالربا ليزيد ماله. هنا نقول له: لماذا تريد المال؟ أتريده لذات المال أم لهدف آخر؟ صحيح أن المال رزق، لكنه رزق غير مباشر.. إن المال رزق غير مباشر لأنه يشتري الأشياء التي ينتفع بها الإنسان وهي الرزق المباشر.

فهب أن إنساناً في صحراء، ومعه جبل من الذهب، لكن الطعام انقطع

عنه.. إن جبل الذهب في مثل هذه الحالة لا ينفع، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء في تلك الحالة أغلى من الذهب.

إذن.. فالمال رزق لكنه غير مباشر يأتي به الرزق المباشر. إن الذي يزيد ماله بالربا؛ عليه أن يعلم أن الله سبحانه يمحق ذلك ويطيّر المال في كوارث، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

إن الإنسان هو الذي يسُوسُ نفسه، فإن أراد الإسنان أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتي أجله، فعليه ألا يُبيح لنفسه أي شيء حرمه الله، وبذلك يظل مستمتعاً بنعم الله عليه؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٦٤].

إن الإنسان هو الذي يظلِمُ نفسه مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

شرح حديث
«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً»
لشيخ الإسلام ابن تيمية وللعلامة
الإمام ابن رجب
رضي اللّه تعالى عنهما

قال رسول اللّه ﷺ فيما يروي عن اللّه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي! إني حَرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا.

يا عبادي! كُلكُم ضالٌ إلا مَنْ هديته؛ فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم عَارٍ إلا من كسَوتُه؛ فاستكسُوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تُخطئُون بالليل والنهار، وأنا أَغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجُلٍ واحدٍ منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كل إنسانٍ منهم مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يُنقصُ المخيط إذا دخَلَ البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد اللّه عزّ وجلّ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَن إلا نفسه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

قوله تعالى: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» فيه مسألتان كبيرتان، كل منهما ذات شُعَب وفروع:

إحداهما: في الظلم الذي حرمه اللّه على نفسه، ونَفَاه عن نفسه بقوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ١١٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] ونفى إرادته بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] ونَفَى خوفَ العباد له بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

فإن الناس تنازَعُوا في معنى هذا الظلم تنازعاً صاروا فيه بين طرفين متباعدين، ووسطٍ بينهما، وخيار الأمور أوساطُها، وذلك بسبب البحث في القَدَر، ومجامعته للشرع. إذ الخوض في ذلك بغير علمٍ تام أوجب ضلال عامة الأمم؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أصحابه عن التنازع فيه.

وفي حديث الكرب قال رسول اللّٰه ﷺ: «ما أصابَ عبداً قطُّ هَمٌّ ولا حزن فقال: اللّٰهم إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك؛ أسألُك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونُور صدري وجلاء حُزني وذهاب هَمي وغَمي، إلا أذهب اللّٰه همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً»[1]. قالوا: يا رسول اللّٰه! أفلا نَتعلّمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل، ولهذا يقال: كُل نعمة منه فضل. وكل نقمة منه عدل.

ويقال: أطعتك بفضلك والمنة لك، وعَصيتُك بعلمك ـ أو بعدلك ـ والحجة لك، فأسألك بوجوب حُجتك عليّ وانقطاع حُجتي إلّا ما غفرت لي.

وهذا الحديث قد تضمن كثيراً من قواعد الدين العظيمة في العلوم والأعمال والأصول والفروع؛ فإن تلك الجملة الأولى وهي قوله: «حَرَمْتُ الظلم على نفسي» يتضمن جُل مسائل الصفات والقدر.

وأما هذه الجملة الثانية، وهي قوله: «وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» فإنها تجمع الدين كله، فإن ما نهى اللّٰه عنه راجع إلى الظلم، وكل ما أمر به راجع إلى العدل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/٣٩١ ـ ٤٥٢] عن ابن مسعود رضي اللّٰه تعالى عنه وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فأخبر أنه أَرسلَ الرسل، وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط، وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصُرُ هذا الحق؛ فالكتاب يهدي، والسيف ينصر؛ وكفى بربك هادياً ونصيراً.

ولهذا كان قوامُ الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد، كما قال من قال من السلف: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء(١).

ولما كان العدل لا بدّ أن يتقدمه علم؛ إذ مَن لا يعلم لا يدري ما العدل، والإنسان ظالمٌ جاهلٌ إلا من تاب الله عليه فصار عالماً عادلاً؛ صار الناس من القضاة، وغيرهم ثلاثة أصناف: العالم العادل، والجاهل، والظالم. فهذان من أهل النار كما قال النبي. المفروض إنما هو بما يبلغه جهد الرجل، قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»(٢).

وأما قوله: «يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أُطعمكم، وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم». فيقتضي أصلين عظيمين:

أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس؛ لأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة. وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥] فالمأمور به هو المقدور للعباد.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧].

فذم مَن يترك المأمور به اكتفاءً بما يجري به القدر.

ومن هنا يُعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا يُنافي وجوب التوكل على

---

(١) وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ أخرجه أبو نعيم في الحلية [٤/٩٦] وابن عبد البر في جامع بيان العلم [١/ ١٨٤] وأورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم [١٦] وقال: موضوع.

(٢) رواه البخاري [٧٣٥٢] ومسلم [١٧١٦/ ١٥] عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه.

اللَّه في وجود السبب، بل الحاجةُ والفقر إلى اللَّه ثابتة مع فعل السبب؛ إذ ليس في المخلوقات ما هو وحدَه سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سبباً إلا بمشيئة اللَّه تعالى، فإنه ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن. فمن ظَنَّ الاستغناء بالسبب عن التوكل؛ فقد ترك ما أوجب اللَّه عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد؛ ولهذا يُخذَل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب، فمن رجا نصراً أو رزقاً من غير اللَّه؛ خذله اللَّه. كما قال عليّ رضي اللَّه تعالى عنه: «لا يَرجُونَّ عبدٌ إلا ربه ولا يخافَنَّ إلَّا ذَنْبَه».

وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

هذا. كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر به من الأسباب؛ فهو أيضاً جاهل ظالمٌ عاص للَّه بترك ما أمره، فإنَّ فِعْلَ المأمور به عبادة للَّه، وقد قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فليس من فعل شيئاً؛ أُمِر به وترك ما أُمر به من التوكل؛ بأعظم ذنباً ممن فعل توكلاً ما أُمر به وترك فعل ما أُمر به من السبب. إذ كلاهما مُخل ببعض ما وجب عليه، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب.

وقد روى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حَسْبيَ اللَّه ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «إن اللَّه يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيس فإذا غلبك امرؤ فقل: حسبي اللَّه ونعم الوكيل»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن باللَّه ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا! ولكن قل: قدر اللَّه وما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»(٢).

ففي قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن باللَّه، ولا تعجز» أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل، وهو الاستعانة باللَّه. فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين؛ ونهى عن العجز

---

(١) رواه أبو داود [٣٦٢٧] عن عوف بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه وضعفه الألباني.
(٢) رواه مسلم [٢٦٦٤/ ٣٤].

الذي هو ضد الكَيْس كما قال في الحديث الآخر: «إن اللّه يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس».

وكما في الحديث الشامي: «الكَيّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت؛ والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها ثم تمنى على اللّه»(١).

فالعاجز في الحديث مقابل الكيس، ومن قال: العاجز الذي هو مقابل البَرّ: فقد حَرَّف الحديث ولم يفهم معناه.

ومنه الحديث: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»(٢).

ومن ذلك: ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه قال: «كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، يقولون: نحن المتوكلون. فإذا قَدِموا مكة سألوا الناس»(٣).

فقال اللّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فمن فعل ما أَمر به من التزود فاستعان به على طاعة اللّه، وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً، كان مطيعاً للّه في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتاً إلى أزواد الحجيج كلاً على الناس، وإن كان مع هذا قلبُه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة. لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على اللّه، ومواساة المحتاج. فقد يكون في تركه لما أُمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به. وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً نقصاً وانقطاعاً للخاصة، ظنًا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة، وقد قال في هذا الحديث: «كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أُطعمكم» وقال: «فاستكسوني أكسكم».

وفي الطبراني وغيره عن النبي ﷺ قال: «لِيَسأَل أَحَدُكم رَبهُ حاجته كُلها حتى شِسْعَ نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»(٤).

وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضاً استهداء اللّه وعمله بطاعته من ذلك. وقولهم يُوجب دفع المأمور به مطلقاً بل دفع المخلوق والمأمور، وإنما غلطوا من حيث

---

(١) رواه ابن ماجه [٤٢٦٠] عن شداد بن أوس رضي اللّه تعالى عنه وضعفه الألباني.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم [١٨/٢٦٥٥] عن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه تعالى عنهما.

(٣) رواه البخاري [١٤٥١].

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه [٨٦٦] عن أنس رضي اللّه تعالى عنه وأبي يعلى في مسنده [٣٤٠٣] وقال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه.

روى الترمذي عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللّه أرأيت أدويةً نَتَداوى بها ورُقى نسترقي بها وتقى نتقيها هل تَرُدُّ من قدر اللّه شيئاً؟ فقال: «هي من قدر اللّه»(١).

وأما قوله: «يا عبادي! إنكم تُخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً» وفي رواية: «وأنا أغفر الذنوب ولا أُبالي فاستغفروني أغفر لكم».

فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان:

أحدهما: المغفرة لمن تاب. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى: لا ييأس مُذنب من مغفرة اللّه ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن اللّه سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن اللّه تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه.

النوع الثاني: من المغفرة العامة التي دل عليها قوله: «يا عبادي» إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً: المغفرة بمعنى تخفيف العذاب، أو بمعنى تأخيره إلى أجل مسمّى، وهذا عام مطلقاً، ولهذا شفع النبي ﷺ في أبي طالب مع موته على الشرك فنقل من غمرة من نار حتى جعل في ضحضاح من نار. في قدميه نعلان من نار يغلي منها دماغه. قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»(٢) وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) رواه الترمذي [٢١٤٨] وابن ماجه [٣٤٣٧] واللفظ له وضعفه الألباني.

(٢) روى مسلم [٢١٣/ ٣٦٤] عن النعمان بن بشير رضي اللّه تعالى عنه قال رسول اللّه ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشِركان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً» وقد صرح باسم أبي طالب في حديث الحاكم [٤/ ٦٢٥/ ٨٧٣٥] وفي المنتخب من مسند عبد بن حميد [٧١١].

وأما قوله عَزَّ وجلَّ: «يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» فإنه بَيَّن بذلك أنه ليس هو فيما يُحسن به إليهم من إجابة الدعوات وغفران الزَّلَّات بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة أو دفع مضرة، كما هي عادة المخلوق الذي يُعطي غيره نفعاً ليُكافئه عليه بنفع، أو يدفع عنه ضرراً ليتقي بذلك ضرره، فقال: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضُرّي فتضروني».

قال قتادة: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخلاً به عليهم، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم.

وقوله: «يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

والملك قد يُراد به القدرة على التصرف والتدبير، ويراد به نفس التدبير والتصرف، ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير، ويراد به ذلك كله، وبكل حال فليس بِرُّ الأبرار وفجور الفجار موجباً لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه، بل هو مشيئته وقدرته يخلق ما يشاء. فلو شاء أن يمنع فجور الفجار لم يمنعه من ذلك مانع، كما يمنع الملوك الجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك. ولو شاء لا يخلق مع بر الأبرار شيئاً مما خلقه لم يكن بِرُّهم مُحوِجاً له إلى ذلك، لا معيناً له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين.

وقوله: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يُنقِص المخيط إذا دخل البحر».

فَبَيَّنَ أن جميع الخلائق إذا سألوا وهم في مكان واحد وزمان واحد فأعطى كل إنسان منهم مسألته لم ينقُصه ذلك مما عنده إلا كما ينقص الخياط - وهي الإبرة - إذا غُمِس في البحر.

وقوله: «لم ينقص مما عندي» فيه قولان: **أحدهما**: أنه يدُل على أن عنده أموراً موجودة يُعطيهم منها ما سألوه إياه، وعلى هذا فيقال لفظ «النقص» على حاله؛ لأن الإعطاء من الكثير وإن كان قليلاً فلا بُدّ أن ينقصه شيئاً ما. ومن رواه «لم ينقص من ملكي» يُحمل على ما عنده كما في هذا اللفظ، فإن قوله: «مما عندي» فيه تخصيص ليس هو في قوله: «من ملكي».

ثم ختمه بتحقيق ما بينه فيه من عدله وإحسانه فقال: «يا عبادي! إنما هي

أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوَفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللّٰه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فبين أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحساناً يستحق به الحمد؛ لأنه هو المنعم بالأمر بها والإرشاد إليها والإعانة عليها ثم إحصائها ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان؛ إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وهو وإن كان قد كتب على نفسه الرحمة، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين ـ كما تقدم بيانه ـ فليس وجوب ذلك كوجوب حقوق الناس بعضهم على بعض الذي يكون عدلاً لا فضلاً. فهو المحسن بالإحسان، وبإحقاقه وكتابته على نفسه، فهو في كتابته الرحمة على نفسه وإحقاقه نصر عباده المؤمنين ونحو ذلك محسن إحساناً مع إحسان.

وكما بين أنه محسن في الحسنات مُتمٌّ إحسانه بإحصائها، والجزاء عليها، بين أنه عادل في الجزاء على السيئات فقال: «ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه».

كما تقدم بيانه في مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. وعلى هذا الأصل استقرت الشريعة الموافقة لفطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها[(١)].

❁ ❁ ❁

وقال العلامة ابن رجب:

قال الإمام أحمد: **هو أشرف حديث لأهل الشام** فقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» يعني: أنه منع نفسه من الظلم لعباده كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] والهضم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: [١٨/١٣٦، ٢٠٩] بتصرف.

ومثل هذا كثير في القرآن، وهو مما يدل على أن اللّه قادر على الظلم ولكن لا يفعله. فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً إلى عباده وقد فسر كثير من العلماء الظلم بأنه: وضع الأشياء في غير مواضعها، وأما من فسره بالتصرف في ملك الغير بغير إذنه ـ وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره ـ فإنهم يقولون: إن الظلم مستحيل عليه وغير متصور في حقه لأن كل ما يفعله فهو تصرف في ملكه وقوله: «وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» يعني: أنه تعالى حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم فحرام على كل عبد أن يظلم غيره مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقاً، وهو نوعان:

أحدهما: ظلم النفس، وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق فعبده وتألهه، فهو وضع الأشياء في غير مواضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن وعيد للظالمين إنما أريد به المشركون كما قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ثم يليه المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر.

والثاني: ظلم العبد لغيره وهو المذكور في هذا الحديث، وقد قال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

وروي عنه: أنه خطب بذلك في يوم النحر من يوم عرفة وفي اليوم الثاني من أيام التشريق. وفي رواية: ثم قال: «اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظالموا، ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه».

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الظلم ظلمات يوم القيامة».

وفيهما عن أبي موسى رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه».

قوله: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي

كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم».

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وإن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وإن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أو خطاياه في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ومثل هذا كثير في القرآن.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى حاكياً عن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وعن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره، وأن كل ما أشرك معه باطل. فقال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ • أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ • فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ • ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ • وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ • وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ • وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ • وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ • رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٣] فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وإحيائه وإماتته في الدنيا ومغفرة ذنوبه في الآخرة؛ مستحق أن يفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة.

وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع» وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته. وقوله: «كلكم ضال إلا من هديته» قد ظن بعضهم أنه معارض بحديث عياض بن

حمار عن النبي ﷺ يقول الله عزّ وجلّ: «خلقت عبادي حنفاء ـ وفي رواية مسلمين ـ فاجتالتهم الشياطين» وليس كذلك فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيؤ والاستعداد له بالقوة لكن لا بدّ للعبد من تعليم الإسلام بالفعل فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] والمراد: وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه الهدى فصار مهدياً بالفعل بعد أن كان مهدياً بالقوة وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

وأما سؤال المؤمن من الله الهداية: فإن الهداية نوعان: هداية مجملة: وهي الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن. وهداية مفصلة: وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته على فعل ذلك. وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً. ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بالليل: «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

ولهذا يشمت العاطس فيقال له: «يهديكم الله» كما جاءت به السنة.

وقد أمر النبي ﷺ علياً أن يسأل الله السداد والهدى، وعَلَّمَ الحسن أن يقول في قنوت الوتر: «اللّهم اهدني فيمن هديت».

وأما الاستغفار من الذنوب: فهو طلب المغفرة، والعبد أحوج شيء إليه لأنه يخطئ بالليل والنهار. وقد تكرر في القرآن ذكر التوبة والاستغفار والأمر بهما والحث عليهما. وخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

وروى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة».

وروى من حديث الأغر المزني رضي اللّه تعالى عنه سمع النبي ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة».

ورواه النسائي ولفظه: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم واستغفروه فإني أتوب إلى اللّه وأستغفره كل يوم مائة مرة».

وروى الإمام أحمد من حديث حذيفة رضي اللّه تعالى عنه أنه قال: كان في لساني ذرب على أهلي لم أعده إلى غيره فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أين أنت من الاستغفار يا حذيفة إني لأستغفر اللّه كل يوم مائة مرة».

ومن حديث أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إني أستغفر اللّه مائة مرة وأتوب إليه».

وروى النسائي من حديث أبي موسى رضي اللّه تعالى عنه قال كنا جلوساً فجاء النبي ﷺ فقال: «ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت اللّه مائة مرة».

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما قال إن كنا لنعد لرسول اللّه ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم».

وروى النسائي من حديث أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال لم أكثر أن يقول: «أستغفر اللّه وأتوب إليه من رسول اللّه ﷺ».

وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي اللّه تعالى عنها عن النبي ﷺ كان يقول: «اللّهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا».

وقوله: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى اللّه نفعاً، فإن اللّه تعالى في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه وإنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها. قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤] وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «ومن يعص اللّه ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر اللّه شيئاً».

قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وقال حاكياً عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧] والمعنى: أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعيا وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح. هذا كله مع غناه عن طاعات عباده إليه وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم، فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه، ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده. كما في رواية عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر لهذا الحديث: «من علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة ثم استغفرني غفرت له ولا أبالي».

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «أن عبداً أذنب ذنباً فقال: يا رب إني فعلت ذنباً فاغفر لي. فقال الله: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي».

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «أنه لما ركب دابته حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً وقال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك وقال: إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري».

رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «والله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها».

كان بعض أصحاب ذي النون يطوف ينادي: آه أين قلبي؟ من وجد قلبي؟ فدخل يوماً بعض السكك فوجد صبياً يبكي، وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار وأغلقت الباب دونه، فجعل الصبي يلتفت يميناً وشمالاً لا يدري أين يذهب ولا أين يقصد فرجع إلى باب الدار فجعل يبكي ويقول: يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت بابك عني ومن الذي يدنيني إذا غضبت علي؟ فرحمته أمه فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكاً في التراب ففتحت

الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها وجعلت تقبله وتقول: يا قرة عيني ويا عزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك وأنت الذي تعرضت لما حل بك، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروهاً. فتواجد الفتى ثم صاح وقال: قد وجدت قلبي. قد وجدت قلبي.

وتفكروا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فإن فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجأون إليه ويعولون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره، وكذلك قوله في حق الثلاثة الذين خلفوا: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] فرتب توبته على ظنهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن العبد إذا خاف من مخلوق؛ هرب منه وفر إلى غيره. وأما من خاف من الله فما له من ملجأ يلجأ إليه. ولا مهرب يهرب إليه إلا هو فيهرب منه إليه كما كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك» وكان يقول: «أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك».

قال الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه: «ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جوداً والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب، أكلأهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي وأتفضل على المسيء؟ من ذا الذي دعاني فلم أستجب إليه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحيته؟ أنا الفضل ومني الفضل، أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم. ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني. فأين إلى غيره يهرب الخلائق؟ وأين عن بابه يلتجئ العاصون؟» أخرجه أبو نعيم.

ولبعضهم في المعنى قائل:

أسأت ولم أحسن وجئتك تائباً ... وأنى لعبد عن مواليه يهرب
يؤمل غفراناً فإن خاب ظنه ... فما أحد منه على الأرض أخيب

فقوله بعد هذا: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى

قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.

ومن الناس من قال: إن إيجاده لخلقه على هذا الوجه الموجود أكمل من إيجاده على غيره وهو خير من وجوده على غيره وما فيه من الشر: فهو شر إضافي نسبي بالنسبة إلى بعض الأشياء دون بعض، وليس شراً مطلقاً بحيث يكون عدمه خيراً من وجوده من كل وجه بل وجوده خير من عدمه وقال: هذا معنى قوله: «بيده الخير».

ومعنى قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك» يعني أن الشر المحض الذي عدمه خير من وجوده؛ ليس موجوداً في ملكك، فإن الله تعالى أوجد خلقه على ما تقتضيه حكمته وعدله، وخص قوماً من خلقه بالفضل وترك آخرين منهم في العدل لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهذا فيه نظر، وهو يخالف ما في الحديث من أن جميع الخلق لو كانوا على صفة أكمل خلقه من البر والتقوى؛ لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ولا قدر جناح بعوضة، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور؛ لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. فدل على أن ملكه كامل على أي وجه كان، لا يزاد ولا يكمل بالطاعة ولا ينقص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء.

وفي هذا الكلام دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هي القلوب، فإذا بر القلب واتقى؛ برت الجوارح وإذا فجر القلب فجرت الجوارح. كما قال النبي ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره.

فقوله: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر».

فالمراد بهذا: ذكر كمال قدرته سبحانه وكمال ملكه وأن ملكه وخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد. وفي ذلك حث للخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «يد اللّه ملأى لا تغيضها نفقة. سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السماوات والأرض: فإنه لم يغض ما في يمينه».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللّهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن اللّه لا يتعاظمه شيء».

وقال أبو سعيد الخدري رضي اللّه تعالى عنه: إذا دعوتم اللّه فارفعوا في المسألة فإن ما عنده لا ينفده شيء، وإذا دعوتم فاعزموا فإن اللّه لا مستكره له.

وفي بعض الإسرائيليات يقول اللّه عزّ وجلّ: «أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم؟ ويرجى غيري ويطرق بابه بالبكرات وبيدي مفاتيح الخزائن وبابي مفتوح لمن دعاني؟ من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به؟ أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت به؟ أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له؟ أنا غاية الآمال فكيف تنقطع الآمال دوني؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي؟ فما يمنع المؤملين أن يؤملوني؟ لو جمعت أهل السماوات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، كيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤسا للقانطين من رحمتي، ويا بؤسا لمن عصاني وتوثب على محارمي».

وقوله: «ولم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» لتحقيق أن ما عنده لا ينقص البتة، كما قال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئاً وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً فإنه لا ينقص من البحر ألبتة، ولهذا ضرب الخضر لموسى عليهما السلام هذا المثل في نسبة علمهما إلى علم اللّه عزّ وجلّ وهذا لأن البحر لا يزال تمده مياه الدنيا وأنهارها الجارية فمهما أخذ منه لم ينقصه شيء لأنه يمده ما هو أزيد مما أخذ منه. وهكذا طعام الجنة وما فيها؛ فإنه لا ينقص كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ • لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

وقد جاء: «كلما نزعت ثمرة؛ عاد مكانها مثلها» وروي: «مثلاها فهي لا تنقص أبداً».

ويشهد لذلك: قول النبي ﷺ في خطبة الكسوف: «ورأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ورواه الإمام أحمد من حديث جابر ولفظه: «ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئاً».

وهكذا لحم الطير الذي يأكله أهل الجنة يستخلف ويعود كما كان حياً لا ينقص منه شيء.

وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه فيها ضعف، وقاله كعب، وروي أيضاً عن أبي أمامة الباهلي من قوله: قال أبو أمامة: وكذلك الشراب يشرب منه حتى تنتهي نفسه ثم يعود مكانه. ورؤي بعض العلماء الصالحين بعد موته بمدة في المنام فقال: «ما أكلت منذ فارقتكم إلا بعض فرخ أما علمتم أن طعام الجنة لا ينفد».

وقد تبين في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه السبب الذي لأجله لا ينقص ما عند الله بالعطاء بقوله: «ذلك بأني جواد واجد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت إنما أقول له كن فيكون».

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وفي مسند البزار بإسناد فيه نظر من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «خزائن الله الكلام فإذا أراد الله شيئاً قال له كن فكان».

فهو سبحانه إذا أراد شيئاً من عطاء أو عذاب أو غير ذلك قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكيف يتصور أن ينقص هذا، وكذلك إذا أراد أن يخلق شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى. لا تخافن غيري ما دام لي السلطان. وسلطاني

دائم لا ينقطع، يا موسى. لا تهتمن برزقي أبداً ما دامت مملوءة لا تفنى أبداً، يا موسى. لا تأنس بغيري ما وجدتني أنيساً لك، متى طلبتني وجدتني، يا موسى. لا تأمن مكري ما لم تجز الصراط إلى الجنة».

وقال بعضهم:

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك بالدين
واسترزق اللّه مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون

وقوله: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها» يعني: أنه سبحانه يحصي أعمال عباده ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها. وهذا كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وقوله: «ثم أوفيكم إياها» الظاهر أن المراد توفيتها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ويحتمل أن المراد: يوفي عباده جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة كما في قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه فسر ذلك بأن المؤمنين يجازون بسيئاتهم في الدنيا، وتدخر لهم حسناتهم في الآخرة فيوفون أجورهم، وأما الكافر فإنه يعجل له في الدنيا ثواب حسناته وتدخر له سيئاته فيعاقب بها في الآخرة ويوفيه جزاءها من خير أو شر، فالشر يُجازى به مثله من غير زيادة إلا أن يعفو اللّه عنه، والخير تضاعف الحسنة عنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلم قدرها إلا اللّه، كما قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقوله: «فمن وجد خيراً فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» إشارة إلى أن الخير كله فضل من اللّه على عبده من غير استحقاق له، والشر كله من عند ابن آدم من اتّباع هوى نفسه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال علي رضي اللّه تعالى عنه: «لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه».

فاللّه سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته؛ أعانه ووفقه لطاعته. وكان ذلك فضلاً منه ورحمة، وإذا أراد خذلان عبد؛ وَكَله إلى نفسه وخلى بينه وبينها، فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر اللّه واتبع هواه وكان أمره فرطاً وكان ذلك عدلاً منه فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول، فما بقي لأحد من الناس على اللّه حجة بعد الرسل. فقوله بعد هذا: «فمن وجد خيراً فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» إن كان المراد من وجد ذلك في الدنيا؛ فإنه يكون حينئذٍ مأموراً بالحمد للّه على ما وجده من جزاء الأعمال الصالحة الذي عجل له في الدنيا كما قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ويكون مأموراً بلوم نفسه على ما فعلت من الذنوب، التي وجد عاقبتها في الدنيا.

كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] فالمؤمن إذا أصابه في الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى اللّه بالتوبة والاستغفار.

وفي المسند وسنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافاه اللّه منه؛ كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل من عمره، وإن المنافق إذا مرض وعوفي؛ كان كالبعير عقله أهله وأطلقوه لا يدري بما عقلوه ولا بما أطلقوه».

وقال سلمان الفارسي: «إن المسلم ليبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتباً فيما بقي، وإن الكافر يبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لما أطلق وعقل» وإن كان المراد: من وجد خيراً أو غيره في الآخرة؛ كان إخباراً منه بأن الذين يجدون الخير في الآخرة يحمدون اللّه على ذلك، وأن من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه حين لا ينفعه اللوم. فيكون الكلام لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، كقوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

والمعنى: أن الكاذب عليه؛ يتبوأ مقعده من النار. وقد أخبر اللّه تعالى عن أهل الجنة أنهم يحمدون اللّه على ما رزقهم من فضله فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وأخبر عن أهل النار أنهم يلومون أنفسهم أشد المقت فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [غافر: ١٠].

وقد كان السلف الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة حذراً من لوم النفس عند انقطاع الأعمال على التقصير. وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه مرفوعاً: «ما من ميت يموت إلا ندم؛ إن كان محسناً ندم على أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون استعتب» وقيل لمسروق: لو قصرت عن بعض ما تصنع من الاجتهاد فقال: واللّه لو أتاني آتٍ فأخبرني أن اللّه لا يعذبني لاجتهدت في العبادة. قيل: كيف ذاك؟ قال: حتى تعذرني نفسي إن دخلت النار أن لا ألومها؛ أما بلغك في قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢] إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم الزبانية وحيل بينهم وبين ما يشتهون وانقطعت عنهم الأماني ورفعت عنهم الرحمة وأقبل كل امرئ منهم يلوم نفسه.

وكان عامر بن عبد قيس يقول: «واللّه لأجتهدن ثم واللّه لأجتهدن، فإن نجوت فبرحمة اللّه، وإلا لم ألم إلا نفسي. وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفوان بن سليم: الجد الجد والحذر الحذر. فإن يكن الأمر على ما نرجو كان فضلاً، وإلا لم تلوما إلا أنفسكما» وكان مطرف بن عبد اللّه يقول: «اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر ما نرجو من رحمة اللّه وعفوه كانت لنا درجات، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحذر لم نقل: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧].

نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك»[(١)].

---

(١) جامع العلوم والحكم للعلامة ابن رجب [ص: ٣٥٠] دار الجيل - بيروت.